

سورة مريم

في عموم سورة مريم قال:

(«سورة طه، مضمونها تخفيف أمر القرآن، وما أنزل الله تعالى من كتبه فهي سورة كتبه، كما أن مريم سورة عباده ورسله») ا.هـ^(١).

﴿كَبِيعَاصَ﴾ ﴿١﴾

(والله تعالى ذكر في القرآن في سورة ﴿كَبِيعَاصَ﴾ قصة ابني الخالة يحيى وعيسى. ويحيى يسمونه النصارى يوحنا وهو يوحنا المعمدانى عندهم) ا.هـ^(٢).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ﴿١﴾

(ومثله ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي اشتعل الشيب في الرأس) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وعن قوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وهو غير مشتعل كاشتعال النار، فهذا مسلم؛ لكن يقال: لفظ الاشتعال لم يستعمل في هذا المعنى، إنما استعمل في البياض الذي سرى من السواد سريان الشعلة من النار، وهذا تشبيه واستعارة، لكن قوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ﴾ استعمل فيه لفظ الاشتعال مقيداً بالرأس لم يستعمل اللفظ في اشتعال الحطب، وهذا اللفظ - وهو قوله: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ - لم يستعمل قط في غير موضعه، بل لم يستعمل إلا في هذا المعنى، وإن كان هذا الوضع يغير^(٤) بعد وضع اشتعلت النار فلا يضر، وإن قصد به تشبيه ذلك المعنى بهذا المعنى فلا يضر، بل هذا شأن الأسماء العامة لا بد أن يكون بين المعنيين قدر مشترك تشبه فيه تلك الأفراد.

وأما تسميته استعارة فمعلوم أنهم لم يستعبروا ذلك اللفظ بعينه، بل ركبوا لفظ ﴿وَأَشْتَعَلَ﴾ مع ﴿الرَّأْسُ﴾ تركيباً لم يتكلموا به، ولا أرادوا به غير هذا المعنى قط. ولهذا لا يجوز أن يقال في مثل هذا: لم يشتعل الرأس شيباً، بل يقال: ليس اشتعال

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٣٧).

(٢) الجواب الصحيح (٢/١٤٦).

(٣) كذا في الأصل.

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/٥٧٠).

الرأس مثل اشتعال الحطب وإن أشبهه من بعض الوجوه) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وأما قول زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فقد قيل: إنه دعاء المسألة، المعنى: أنك عودتني إجابتك، ولم تشقني بالرد والحرمان؛ فهو توسل إليه عليه السلام بما سلف من إجابته وإحسانه وهذا ظاهر هاهنا) ا. هـ (٢).

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ آمْرَانِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥﴾
﴿بِرِّثِي وَبِرِّثٍ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

وقال رحمه الله: في رده على من استدل بهذه الآية على أن النبي عليه السلام يورث منه المال. (وقوله تعالى [عن زكريا]: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ بِرِّثِي وَبِرِّثٍ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ لا يدل على محل النزاع. لأن الإرث اسم جنس تحته أنواع، والدال على ما به الاشتراك لا يدل على ما به الامتياز فإذا قيل: هذا حيوان، لا يدل على أنه إنسان أو فرس أو بعير.

وذلك أن لفظ «الإرث» يستعمل في إرث العلم والنبوة والملك وغير ذلك من أنواع الانتقال. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٣﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهُا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ا. هـ (٣).

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ آمْرَانِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥﴾.
(وأيضاً فإنه قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي﴾ ومعلوم أنه لم يخف أن يأخذوا ماله من بعده إذا مات، فإن هذا ليس بمخوف) ا. هـ (٤).

﴿بِرِّثِي وَبِرِّثٍ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله [عن زكريا]: ﴿بِرِّثِي وَبِرِّثٍ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ليس

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٦٤ - ٤٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١٤).

(٤) منهاج السنة (٤/٢٢٥).

(٣) منهاج السنة (٤/٢٢٢).

المراد به إرث المال، لأنه لا يرث من آل يعقوب شيئاً من أموالهم، بل إنما يرثهم ذلك أولادهم وسائر ورثتهم لو ورثوا، ولأن النبي لا يطلب ولداً ليرث ماله؛ فإنه لو كان يورث لم يكن بد من أن ينتقل المال إلى غيره، سواء كان ابناً أو غيره، فلو كان مقصوده بالولد أن يرث ماله، كان مقصوده أنه لا يرثه أحد غير الولد) ١. هـ^(١).

﴿يَنْزِكِرِنَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧).

(أما قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ثم قال: ﴿يَحْيَى﴾ فالاسم الذي هو يحيى هو هذا اللفظ المؤلف من (يا وحا ويا) هذا هو اسمه، ليس اسمه هو ذاته، بل هذا مكابرة. ثم لما ناداه فقال: ﴿يَحْيَى﴾، فالمقصود المراد بندا الاسم هو نداء المسمى؛ لم يقصد نداء اللفظ، لكن المتكلم لا يمكنه نداء الشخص المنادى إلا بذكر اسمه وندائه؛ فيعرف حينئذ أن قصده نداء الشخص المسمى، وهذا من فائدة اللغات وقد يدعى بالإشارة، وليست الحركة هي ذاته، ولكن هي دليل على ذاته) ١. هـ^(٢).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨).

(وكذلك قال زكريا لما تعجب من حصول ولد على الكبر فقال: ﴿إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ولم يقل «إنه أهون عليه» كما قال في المبدأ والمعاد: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ١. هـ^(٣).

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرِزْقًا وَكَانَ تَقِيًّا﴾ (١٣).

(ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرِزْقًا﴾ والحنان بالتشديد: ذو الرحمة، وتحزن عليه ترحم، والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانك بمعنى واحد، أي رحمتك، وهذا كلام الجوهري.

وفي الأثر في تفسير «الحنان، المنان»: أن الحنان: هو الذي يقبل على من أعرض عنه، والمنان: الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال، وهذا باب واسع^(٤) ١. هـ^(٥).

(١) منهاج السنة (٤/٢٢٤ - ٢٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/١٩٢ - ١٩٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٢٦٣).

(٤) مر الإشارة إليه.

(٥) مجموع الفتاوى (٥/٥٧٣).

﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (٧).

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (٧) قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾ ، فقد أخبر أنه أرسل إليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً، وتبين أنه رسوله.

فعلم أن المراد بالروح ملك، هو روح اصطفاها فأضافها إليه، كما يضاف إليه الأعيان التي خصها بخصائص يحبها.

كقوله: ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس: ١٣] وقوله: ﴿ وَطَهَّرَ بَنِي لِبَطَّانِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرَّكْعَ الشُّجُودَ ﴾ [الحج: ٢٦] وقوله: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٦].

والمضاف إلى الله إن كان صفة لم تقم بمخلوق كالعلم والقدرة والكلام والحياة، كان صفة له، وإن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة لغيره، كالبيت والناقة والعبد والروح، كان مخلوقاً مملوكاً مضافاً إلى خالقه ومالكة، ولكن الإضافة تقتضي اختصاص المضاف بصفات تميز بها عن غيره، حتى استحق الإضافة، كما اختصت الكعبة والناقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم (بيت الله) و(ناقة الله)، و(عباد الله)، كذلك اختصت الروح المصطفاة بأن يقال لها (روح الله).

بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار، فإنها مخلوقة لله، ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة، كما لا تضاف إليه الجمادات، كما تضاف الكعبة، ولا نوق الناس، كما تضاف ناقة صالح التي كانت آية من آياته، كما قال تعالى: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ [هود: ٦٤] ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (أما قوله تعالى: ﴿ فَفَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ [التحریم: ١٢] وقوله في سورة الأنبياء: ﴿ وَاللَّيِّ أَحْصَتْ فَرْحَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١١) فهذا قد فسره قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (٧) قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾ ، وفي القراءة الأخرى^(٢) ليهب لك غلاماً زكياً.

فأخبر أنه رسوله وروحه، وأنه تمثل لها بشراً، وأنه ذكر أنه رسول الله إليها، فعلم أن روحه مخلوق مملوك له، ليس المراد حياته التي هي صفته ﷻ.

وكذلك قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] وهو مثل قوله في آدم ﷺ: ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وقد شبه المسيح بآدم في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران].

والشبهة في هذا نشأت عند بعض الجهال من أن الإنسان إذا قال: روحي، فروحه في هذا الباب هي الروح التي في البدن، وهي عين قائمة بنفسها، وإن كان من الناس من يعني بها الحياة، والإنسان مؤلف من بدن وروح، وهي عين قائمة بنفسها عند سلف المسلمين وأئمتهم وجماهير الأمم، والرب تعالى منزّه عن هذا، وأنه ليس مركباً من بدن وروح، ولا يجوز أن يراد بروحه ما يريد الإنسان بقوله: روحي، بل تضاف إليه ملائكته وما ينزله على أنبيائه من الوحي والهدى والتأييد، ونحو ذلك) ١. هـ^(١).

﴿قَالَتْ إِنَِّّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا﴾.

(فهو - سبحانه - قد ذكر قصة مريم والمسيح في هاتين السورتين:

إحدهما: مكية نزلت في أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين، وهي سورة

﴿كَهَيَّصَ﴾.

والثانية: مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتهم، كما نزلت في «براءة» مجاهدتهم، فأخبر في السورة المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحه فتمثل لها بشراً سوياً فقالت: ﴿إِنَِّّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا﴾.

قال أبو وائل: علمت أن المتقي ذو نهية أي تقواه ينهيه عن الفاحشة، وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة، فقالت: أعوذ بالرحمن منك إن كنت نقياً، أي تتقي الله، وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر اسمه تقي فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذي لا يقوله إلا جاهل، ثم قال: إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً وفي القراءة الأخرى: ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها بشراً سوياً أنه رسول ربها، فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله، ولهذا قال جماهير العلماء: إنه جبريل ﷺ، فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس، وسماه جبريل، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن

روح القدس، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله، وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد وليس في شيء من الكتب الإلهية ولا في كلام الأنبياء أن الله سمي صفته القائمة به روح القدس، ولا سمي كلامه، ولا شيئاً من صفاته ابناً، وهذا أحد ما يثبت به ضلال النصارى، وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت الأنبياء، فإن أصل تثليثهم مبني على ما في أحد الأناجيل من أن المسيح ﷺ قال لهم: «عملدوا الناس باسم الآب والابن وروح القدس» فيقال لهم: هذا إذا كان قد قاله المسيح، وليس في لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء، أنهم يسمون صفة الله القائمة به لا كلمته ولا حياته لا ابناً ولا روح قدس، ولا يسمون كلمته ابناً، ولا يسمونه نفسه ابناً، ولا روح قدس، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يصفون المصطفى المكرم ابناً، وهذا موجود في حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل: «أنت ابني بكري».

أي بني إسرائيل^(١).

وروح القدس يراد به الروح التي تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره، فإن في كتبهم أن روح القدس كانت في داود وغيره، وأن المسيح قال لهم: «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» فسماه أباً للجميع، لم يكن المسيح مخصوصاً عندهم باسم الابن، ولا يوجد عندهم لفظ الابن إلا للمصطفى المكرم، لا اسماً لشيء من صفات الله، ولا في كتب الأنبياء أن صفة الله تولدت منه.

وإذا كان كذلك كان في هذا ما يتبين أنه ليس المراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية التي يقولون إنها تولدت من الله عندهم مع كونها أزلية ولا بروح القدس حياة الله، بل المراد بالابن ناسوت المسيح، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي والملك الذي نزل به فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله، وبرسوله، وبما أنزله على رسوله، والملك الذي نزل به، وبهذا أمرت الأنبياء كلهم وليس للمسيح خاصة استحقق بها أن يكون فيه شيء من اللاهوت، لكن ظهر فيه نور الله وكلام الله، وروح الله كما ظهر في غيره من الأنبياء والرسول، فإن غيره أيضاً فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمي ابناً، وروح القدس حلت فيه، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

(١) كذا في الأصل.

والمقصود هنا: التنبيه على أن كلام الأنبياء ﷺ يصدق بعضه بعضاً، وأنه ليس مع النصارى لا حجة سمعية، ولا عقلية توافق ما ابتدعوه، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه، وعندهم في الإنجيل أنه قال: «إن الساعة لا يعلمها الملائكة ولا الابن وإنما يعملها الأب وحده» فبين أن الابن لا يعلم الساعة فعلم أن الابن ليس هو القديم الأزلي وإنما هو المحدث الزماني) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًّا ﴿٢٢﴾ إلى آخر القصة. فهي إنما حملت به بعد النفخ، لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر آدميين، ففرق بين النفخ والحمل، وبين النفخ لروح الحياة) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (إن الكتب دلت على أن المسيح تجسد في روح القدس، ومن مريم العذراء البتول، وهكذا هو في الأمانة التي لهم، وبهذا أخبر القرآن حين أخبر في غير موضع، أنه نفخ في مريم من روحه مع إخباره أنه أرسل إليها روحه.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴿٢٣﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْغُزْرِ ﴿١٢٧﴾﴾ [التحریم]، فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً) ا.هـ^(٣).

(١) الجواب الصحيح (٢/ ١٥٠ - ١٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٦٧).

(٣) الرد على المنطقيين (٤٩٤ - ٤٩٥).

﴿فَكُلِي وَأَشْرِي وَفَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٣٧).

وقال رحمه الله: (أما قول مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي صمتاً فذلك كان في شريعة من قبلنا، وقد نسخ ذلك في شرعنا) ١. هـ^(١).

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٣٨).

(قالوا للمغيرة بن شعبة^(٢): أنتم تقرأون في كتابكم: ﴿يَتَأَخَّتْ هَرُونَ﴾ وموسى بن عمران كان قبل عيسى بسنين كثيرة، فظنوا أن هارون المذكور هو هارون أخو موسى، وهذا من فرط جهلهم، فإن عاقلاً لا يخفى عليه أن موسى كان قبل عيسى بسنين كثيرة، وأن مريم أم عيسى ليست أخت موسى وهارون، ولا هو المسيح ابن أخت موسى، وليس في من له تمييز - وإن كان من أكذب الناس - [من] يرى أن يتكلم بمثل هذا الذي يضحك عليه به كل من سمعه، فكيف بمن هو أعظم الناس عقلاً وعلماً ومعرفة: غلبت عقول بني آدم ومعارفهم وعلومهم، حتى استجاب له كل ذي عقل مصداقاً لخبره، مطيعاً لأمره وذلّ له - أو خاف منه - كل من لم يستجب له، وظهر به من العلم والبيان، والهدى والإيمان، ما قد ملأ الآفاق، وأشرق به الوجود غاية الإشراق؟

فكان النصراني الذين سمعوا هذا - لو كان لهم تمييز - لعلموا أن مثل هذا الرجل العظيم الذي جاء بالقرآن لا يخفى عليه أن المسيح ليس هو ابن أخت موسى بنت عمران، ولا يتكلم بمثل ذلك، ولو كانت أختها لكان إضافتها إلى موسى أولى من إضافتها إلى هارون، فكان يقال لها: يا أخت موسى، لكن لما اتفق أن مريم هذه بنت عمران، وذاتك موسى وهارون ابنا عمران، فكان لفظ عمران فيه اشتراك، والاشتراك غالب على أسماء الأعلام - نشأت الشبهة، حتى سأل المغيرة النبي ﷺ عن ذلك فقال: «ألا قلت لهم إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم؟ إن هارون هذا كان رجلاً في بني إسرائيل سموه باسم هارون النبي»^(٣) ١. هـ^(٤).

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٩) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي

(١) الجواب الصحيح (٤/٢٧٨ - ٢٧٩).

(٢) ابن جرير (١٦/٧٨).

(٣) مسلم (٣/١٦٨٥).

(٤) درء تعارض العقل (٧/٦٨ - ٦٩).

بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبِرَأْيِ بَوْلَدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ .

(وقد أخبر الله ﷺ أن أول ما تكلم به المسيح أن قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٢﴾ وَبِرَأْيِ بَوْلَدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٣﴾﴾ ثم طلب لنفسه السلام فقال: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ ا.هـ^(١).

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبِرَأْيِ بَوْلَدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ .

(وقال عن المسيح ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِرَأْيِ بَوْلَدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾، فبين أن الله هو الذي جعله برأ بوالدته ولم يجعله جباراً شقياً. وهذا صريح قول أهل السنة في أن الله ﷻ خلق أفعال العباد) ا.هـ^(٢).
﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

(ولما قص تعالى قصة المسيح قال: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي يشكون ويتمارون كتماري اليهود والنصارى) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وأما قولك: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ ففيه قراءتان مشهورتان: الرفع، والنصب، وعلى القراءتين قد قيل: إن المراد بقول الحق: عيسى؛ كما سمي كلمة الله، وقيل بل المراد هذا الذي ذكرناه قول الحق؛ فيكون خبر مبتدأ محذوف، وهذا له نظائر؛ كقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الآية [الكهف: ٢٢]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي هذا الحق من ربكم، وإن أريد به عيسى فتسميته قول الحق كتسميته كلمة الله، وعلى هذا فيكون خبراً وبدلاً.

وعلى كل قول فله نظائر، فالقول في تسميته مجازاً كالقول في نظائره.

والأظهر أن المراد به أن هذا القول الذي ذكرناه عن عيسى ابن مريم قول الحق إلا أنه ابن عبد الله يدخل في هذا^(٤). ومن قال: المراد بالحق الله، والمراد قول الله

(١) الجواب الصحيح (٣٢/٤).

(٢) منهاج السنة (١١١/٣).

(٤) كذا في الأصل.

(٣) الجواب الصحيح (١٦٥/٢).

فهو وإن كان معنى صحيحاً فعادة القرآن إذا أضيف القول إلى الله أن يقال: قول الله، لا يقال: قول الحق، إلا إذا كان المراد القول الحق، كما في قوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَوْوُلُ﴾ [ص: ٨٤].

ثم مثل هذا إذا أضيف فيه الموصوف إلى الصفة، كقوله: ﴿رَحَبَ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]. وقولهم: صلاة الأولى ودار الآخرة، هو عند كثير من نحاة الكوفة وغيرهم إضافة الموصوف إلى صفته بلا حذف، وعند كثير من نحاة البصرة أن المضاف إليه محذوف تقديره: صلاة الساعة الأولى، والأول أصح، ليس في اللفظ ما يدل على المحذوف ولا يخطر بالبال، وقد جاء في غير موضع كقوله: ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البقرة: ٩٤]، وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾.

وبالجملة فنظائر هذا في القرآن وكلام العرب كثير، وليس في هذا حجة لمن سمي ذلك مجازاً إلا كحجته في نظائره، فيرجع في ذلك إلى الأصل) ١. هـ^(١).

﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٨).

قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، يقول تعالى: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا، لكن الظالمون اليوم كالنصارى الذين ظلموا بإفكهم وشركهم في ضلال مبين ضلوا عن الحق في المسيح) ١. هـ^(٢).

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢).

(وهكذا إبراهيم الخليل قال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢)، فهذا توبيخ على فعله قبل النهي) ١. هـ^(٣).

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢).

(وقول إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فثبت أن الله يسمع ويبصر) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٨٠ - ٤٨١).

(٢) الجواب الصحيح (٢/١٦٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٦٨١).

(٤) بيان تلبس الجهمية (١/٣٤٩ - ٣٥٠).

عَنكَ شَيْئًا ﴿ فدل على أن السميع البصير الغني أكمل، وأن المعبود يجب أن يكون كذلك ا.هـ (١) .

وقال رحمه الله: (وقد قال سبحانه عن إمام الأئمة، وخليل الرحمن، وخير البرية - بعد محمّد ﷺ - أنه قال لأبيه: ﴿ يَتَأْتِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ ﴿١١﴾ يَتَأْتِي إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴿ إلى قوله: ﴿ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ فنهاه وأنكر عليه أن يعبد الأوثان، التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنه شيئاً ا.هـ (٢) .

وقال رحمه الله: (إن الله تعالى ذكر عن الخليل ﷺ أنه قال: ﴿ يَتَأْتِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ [الشعراء] فاحتج على نفي إلهيتها بكونها لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر؛ مع كون كل منهما له بدن وجسم، سواء كان حجراً أو غيره.

فلو كان مجرد هذا الاحتجاج كافياً لذكره إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام بل إنما احتجوا بمثل ما احتج الله به من نفي صفات الكمال عنها: كالتكلم والقدرة، والحركة وغير ذلك ا.هـ (٣) .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ ﴿٥٨﴾ .

(وقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ ﴿٥٨﴾ وهذا قد مضى قبل نزول القرآن والفعل مضارع لأنه حكى حالهم الماضي، ولهذا تقول النحاة هذا حكاية حال كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: ١٨] ا.هـ (٤) .

﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ ﴿٥٩﴾ .
قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ ﴿٥٩﴾ .

و«الغي» في الأصل: مصدر غوى يغوي غياً، كما يقال: لوى يلوي لياً؛ وهو ضد الرشد كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَيِّئَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٢٥٩) .

(١) مجموع الفتاوى (٦/٨٢) .

(٤) الاستغاثة (٢٨٥ - ٢٨٦) .

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٢٢٢) .

و«الرشد» العمل الذي ينفع صاحبه، والغى العمل الذي يضر صاحبه، فعمل الخير رشد، وعمل الشر غي؛ ولهذا قالت الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِمَن رَّبُّهُمْ رَشْدًا﴾ [الجن: ١٠] ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشْدًا﴾ [الجن: ١١] ومنه «الرشيد» الذي يسلم إليه ماله. وهو الذي يصرف ماله فيما ينفع لا فيما يضر.

وقال الشيطان: ﴿وَأَغْوَيْتَنَّهُمْ أَجْمِينَ﴾ [٢٦] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّيْنِ﴾ [٢٧] [الحجر]، وهو أن يأمرهم بالشر الذي يضرهم فيطيعونه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال: ﴿وَبَرَزْتُ الْحَجِمْ لِلْفَاوِينَ﴾ [٢٨] [الشعراء]، إلى أن قال: ﴿فَكَبِّكِرُوا فِيهَا هُمْ وَالْفَاوِينَ﴾ [٢٩] ﴿وَحُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمُونَ﴾ [٣٠]، وقال: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣]، وقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١].

ثم إن «الغي» إذا كان اسماً لعمل الشر الذي يضر صاحبه فإن عاقبة العمل أيضاً تسمى غياً، كما أن عاقبة الخير تسمى رشداً، كما يسمى عاقبة الشر شراً، وعاقبة الخير خيراً؛ وعاقبة الحسنات حسنات؛ وعاقبة السيئات سيئات.

«فالحسنات والسيئات» في كتاب الله يراد بها أعمال الخير وأعمال الشر، كما يراد بها النعم والمصائب والجزاء من جنس العمل، فمن عمل خيراً وحسنات لقي خيراً وحسنات، ومن عمل شراً وسيئات لقي شراً وسيئات. وكذلك من عمل غياً لقي غياً، وترك الصلاة واتباع الشهوات غي يلقي صاحبه غياً. فلهذا قال الزمخشري: كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد كما قيل:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره
ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

وقال الزجاج: جزاؤه غي؛ لقوله: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي مجازات آثام^(١). وفي الحديث المأثور: «إن غيا واد في جهنم تستعيز منه أوديتها»^(٢) وهذا تعبير

(١) الكشاف (٢٤/٣).

(٢) أما مرفوعاً فقد رواه ابن مردويه كما في الدر المنثور (٢٧٨/٤) أما موقوفاً - وهو الأصح - فقد ورد عن عبد الله بن مسعود كما في ابن جرير (١٠٠/١٦)، وقد يُقال: إن مثل هذا لا يعرف إلا بالنقل إذ لا مجال للرأي فيه، قلنا: احتمال النقل عن أهل الكتاب يعكر صفو هذه القاعدة والله أعلم.

عن ملاقاته الشر، وقال سبحانه: ﴿أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ فإن الصلاة فيها إرادة وجه الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] أي يصلون صلاة الفجر والعصر. والداعي يقصد ربه ويريده، فتكون القلوب في هذه الأشياء مريدة لربها محبة له.

«واتباع الشهوات» هو اتباع ما تشتهي النفس؛ فإن «الشهوات» جمع شهوة، والشهوة هي في الأصل: مصدر. ويسمى المشتهى شهوة.

(تسمية للمفعول باسم المصدر. قال تعالى: ﴿رُئِدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَرُئِدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] فجعل التوبة في مقابلة اتباع الشهوات، فإنه يريد أن يتوب علينا، أي فالله يحب لنا ذلك ويرضاه ويأمر به، ﴿وَرُئِدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ وهم الغاؤون ﴿أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ يعدل بكم عن الصراط المستقيم إلى اتباع الشهوات عدولاً عظيماً، فإن أصل «الميل» العدول، فلا بد منه للذين يتبعون الشهوات، كما قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(١) رواه أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَإِذِنِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ قال طائفة من السلف^(٣): إضاعتها تأخيرها عن وقتها، ولو تركوها لكانوا كفاراً) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال النبي ﷺ «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروه سنامه الجهاد في سبيل الله»^(٥) وقد قال الله في كتابه: ﴿خَلَفَ مِنْ بَإِذِنِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾^(٦)، قال عبد الله بن مسعود^(٦) وغيره: إضاعتها تأخيرها عن وقتها؛ ولو تركوها كانوا كفاراً) ا. هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَإِذِنِهِمْ خَلْفٌ أَصَاغُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وإضاعتها تأخيرها عن وقتها، كذلك فسرها ابن مسعود وإبراهيم

(١) ابن ماجه (٢٧٧/٢٧٨) وأحمد (٢٧٧/٥، ٢٨٢) والدارمي (١٦٨/١) والبيهقي (٨٢/١، ٤٥٧) والحاكم (٣٠/١) والطبراني (٩٨/٢) والحديث صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (٥٦٨/١٠ - ٥٧١). (٣) ابن جرير (٩٨/١٦ - ٩٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٠) (٢١٧/٣٤). (٥) مر تخريجه.

(٦) ابن جرير (٩٩/١٦).

(٧) مجموع الفتاوى (٤٢٨/٣) (٥٧٩/٧، ٦١٤).

والقاسم بن محمّد والضحاك وغيرهم من غير مخالف لهم، قال ابن مسعود: إضاعتها صلاتها لغير وقتها؛ لأن الشيء الضائع ليس هو معدوماً، إنما هو مهممل غير محفوظ) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾) ٥٩ قال غير واحد من السلف إضاعتها تأخيرها عن وقتها، فقد أخبر الله سبحانه أن الويل لمن أضاعها وإن صلاها، ومن كان له الويل لم يكن قد يقبل عمله، وإن كان له ذنوب أخر.

فإذا لم يكن ممثلاً للأمر في نفس العمل لم يتقبل ذلك العمل، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لعمر^(٢): واعلم أن الله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، والله أعلم) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (إن عمر وابن مسعود وغيرهما من السلف جعلوا ترك الصلاة كفراً وتأخيرها عن وقتها إثماً ومعصية) وفسروا بذلك قوله تعالى: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، وقوله تعالى: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾) ٥٩ فقد قال بعض السلف: إضاعتها تأخيرها عن وقتها، وإضاعة حقوقها قالوا: وكانوا يصلون، ولو تركوها لكانوا كفاراً؛ فإنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «ليس بين العبد وبين الشرك إلا ترك الصلاة»^(٥) وقال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»^(٦) وفي الحديث: «إن العبد إذا أكمل الصلاة صعدت ولها برهان كبرهان الشمس. تقول: حفظك الله كما حفظتني، وإن لم يكملها فإنها تلف كما يلف الثوب، ويضرب بها وجه صاحبها، وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني»^(٧).

(١) شرح العمدة - الصلاة (٥٣).

(٢) الزهد لهناد (٤٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣٦/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٩/٢٢ - ٤٠).

(٤) شرح العمدة - الصلاة (٢٣٣)، جامع المسائل (١٢١/٤) عن ابن مسعود وغيره.

(٥) مسلم (٨٢).

(٦) الترمذي (٢٦٢١)، وابن ماجه (١٠٧٩) والحديث صحيح.

(٧) أبو داود الطيالسي (٨٠)، البزار (١٤٠/٧)، قال الهيثمي في المجمع (١٢٢/٢): رواه الطبراني في الكبير والبزار، وفيه الأحوص بن حكيم وثقه المديني والعجلي وضعفه جماعة =

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا نصفها، إلا ثلثها؛ إلا ربعها؛ إلا خمسها؛ إلا سدسها - حتى قال -: إلا عشرها»^(١)، وقال ابن عباس: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها.

وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ الذي يشتغل به عن إقامة الصلاة - كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ - بنوع من أنواع الشهوات: كالرقص، والغناء، وأمثال ذلك) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِمْ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَا﴾ ﴿٥٩﴾ وقد سألو ابن مسعود عن إضاعتها فقال: هو تأخيرها حتى يخرج وقتها، فقالوا: ما كنا نرى ذلك إلا تركها، فقال: لو تركوها لكانوا كفاراً وقد كان ابن مسعود يقول عن بعض أمراء الكوفة في زمانه: ما فعل خلفكم؟ لكونهم كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها.

وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ يتناول كل من استعمل ما يشتهي عن المحافظة عليها في وقتها، سواء كان المشتهى من جنس المحرمات: كالمأكل المحرم، والمشروب المحرم، والمنكوح المحرم، والمسموع المحرم، أو كان من جنس المباحات لكن الإسراف فيه ينهي عنه، أو غير ذلك، فمن اشتغل عن فعلها في الوقت بلعب أو لهو أو حديث مع أصحابه أو تنزه في بستانه، أو عمارة عقاره، أو سعى في تجارته أو غير ذلك فقد أضاع تلك الصلاة، واتبع ما يشتهي.

وقد قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا لَّهُمْ ءَأْمُولُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ ﴿٩﴾ [المنافقون]، ومن ألهاه ماله وولده عن فعل المكتوبة في وقتها دخل في ذلك، فيكون خاسراً. وقال تعالى في ضد هؤلاء: ﴿سَيَحِبُّ لَكُمْ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْآصَالِ﴾ ﴿٣٦﴾ رَجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَحْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ وَإِينَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور].

فإذا كان سبحانه قد توعد بلقي الغي من يضيع الصلاة عن وقتها ويتبع الشهوات، والمؤخر لها عن وقتها مشتغلاً بما يشتهي هو مضيع لها متبع لشهوته، فدل ذلك على أنه

= وبقيّة رجاله موثوقون، وكذا رواه الطبراني في الأوسط (٥٥٥ - مجمع البحرين) ولكن بسند فيه ضعف.

(١) أبو داود (٧٩٦)، وأحمد (٣٢١/٤)، وأبو يعلى (١٦١٥)، والحديث صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٤/٢٢ - ٢٥).

من الكبائر، إذ هذا الوعيد لا يكون إلا على كبيرة، ويؤيد ذلك جعله خاسراً، والخسران لا يكون بمجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِمُ خَلْفٍ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ ٥٩) فهؤلاء يشتغلون بالشهوات عن الصلاة) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِمُ خَلْفٍ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية. وإضاعتها التفريط في واجباتها وإن كان يصليها، والله أعلم) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِمُ خَلْفٍ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ فإن تأخيرها عن الوقت الذي يجب فعلها فيه هو إضاعة لها وسهو عنها بلا نزاع أعلمه بين العلماء وقد جاءت الآثار بذلك عن الصحابة والتابعين) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (حتى كان ابن مسعود يتأول في بعض الأمراء الذين كانوا على عهده: أنهم من الخلف الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِمُ خَلْفٍ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ ٥٩) فكان يقول: «كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، إذا ترك فيها شيء، قيل: تركت السنة، فقيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: ذلك إذا ذهب علماؤكم، وقلت فقهاؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتفقه لغير الدين»^(٥) وكان عبد الله بن مسعود يقول أيضاً: أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال: أمور تكون من كبرائكم فأیما رجل أو امرأة أدرك ذلك الزمان فالسَّمت الأول، فالسَّمت الأول) ١. هـ^(٦).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاً إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا بِكْرَةٌ وَعِشْيَا﴾ ٦٦

(وقد جاء في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا بِكْرَةٌ وَعِشْيَا﴾ أن أهل الجنة يعرفون مقدار البكرة والعشي بأنوار تظهر من جهة العرش، فيكون بعض الأوقات عندهم أعظم نوراً من بعض، إذ ليس عندهم ظلمة، وهذه الأنوار المخلوقة كلها خلقها الله تعالى) ١. هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (قيل في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا بِكْرَةٌ وَعِشْيَا﴾ قال بعضهم:

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٥٥ - ٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٢٢).

(٣) الحلبة (١/١٣٦).

(٤) بيان تلبيس الجهمية (١/٢٩٨)، والذي ذكره شيخ الإسلام مذكور عن قتادة، والحسن،

وزهير بن محمّد وغيرهم، يراجع الطبري، وابن كثير.

(٥) الاستقامة (١/٣٧٦).

(٦) منهاج السنة (٥/٢١٠).

(٧) القواعد النورانية (٩١ - ٩٢).

يؤتون على مقدار البكرة والعشي في الدنيا وقيل: يعرف ذلك بأنوار تظهر من ناحية العرش كما يعرف ذلك في الدنيا بنور الشمس). ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال أبو الفرج بن الجوزي: وهذا قول ابن قتيبة والجمهور وبيانه: أن زمان أهل الجنة والنار يتصور دخوله تحت العدد تحت قوله تعالى: ﴿بُكْرَةٌ وَعَشِيَةٌ﴾، ومثل هذا، أن كلمات الله داخله تحت العدد وإن لم يكن لها نهاية، فيقال: هذا ممنوع، فما لا نهاية له يمتنع أن يدخل تحت العدد، وإنما يدخل تحت العدد ما له مقدار محدود وهو المعدود، لكن إذا أخذ بعض من أبعاضه دخل تحت العدد كالبكرة والعشي، وهو مقدار يوم من أيام الجنة، ويعرف ذلك بنور يظهر لهم يزيد على النور المعتاد، يعرفون به البكرة والعشي، كما تظهر الشمس لأهل الدنيا، لكن الجنة ليس فيها ظلمة.

وقوله: كلمات الله داخله تحت العدد ممنوع إنما يدخل منها تحت العدد بعض من أبعاضها مثل الآيات المنزلة، وإلا فما لا نهاية له كيف يكون معدوداً وكلما عد بقدر معدود فهو ما حد، وما يقدره الإنسان وذمته من العدد فله حد، والذي لا يتناهى ليس له مقدار لا في ذهنه ولا في لسانه) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأيد هذا المعنى أن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفَدْوَىٰ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقد فسر هذا الدعاء بصلاتي الفجر والعصر، ولما أخبر أنهم يريدون وجهه بهاتين الصلاتين، وأخبر في هذا الحديث أنهم ينظرون إليه فتحضيضهم على هاتين يناسب ذلك أن من أراد وجهه نظر إلى وجهه تبارك وتعالى.

ثم لما انضم إلى ذلك ما تقدم من أن صلاة الجمعة سبب للرؤية في وقتها، وكذلك صلاة العيد ناسب ذلك أن تكون هاتان الصلاتان اللتان هما أفضل الصلوات، وأوقاتها أفضل الأوقات، فناسب أن تكون الصلاة التي هي أفضل الأعمال ثم ما كان منها أفضل الصلوات في أفضل الأوقات - سبباً لأفضل الثوابات في أفضل الأوقات. لا سيما وقد جاء في حديث ابن عمر الذي رواه الترمذي عن إسرائيل عن ثوير بن أبي فاختة سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «أن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر

(١) مختصر الفتاوى المصرية (٣٨)، هذا الذي ذكره بعضهم مذكور عن مجاهد.

(٢) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٦٥ - ٦٦).

إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشياً - ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٦٦﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٦٧﴾﴾ [القيامة] (١)، قال الترمذي: وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعاً، ورواه عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر موقوفاً، ورواه عبيد الله الأشجعي عن سفيان عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله: ولم يرفعه، وقال الترمذي: لا نعلم أحداً ذكر فيه مجاهداً غير ثوير وأظنه قد قيل: في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيًا﴾ أن منه النظر إلى الله) ا. هـ (٢).

﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

(وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ وقد ثبت أن جبريل قال له النبي ﷺ: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فأنزل الله هذه الآية. وهذا يبين أن نزول جبريل إلى الأرض وأنه لا ينتزل إلا بأمر الله، وعندهم يمنع نزول ملك إلى الأرض، ويمتنع أن يكون الله أمر جبريل بنزوله) ا. هـ (٣).

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

(وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي مثلاً يستحق أن يسمى بأسمائه) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي نظيراً يستحق مثل اسمه، ويقال: مسامياً يساميه، وهذا معنى ما يروي عن ابن عباس (٥) هل تعلم لله سمياً مثلاً أو شبيهاً) ا. هـ (٦).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال أهل اللغة: هل تعلم له سمياً أي نظيراً يستحق مثل اسمه. مسامياً يساميه، وهذا معنى ما

(١) الترمذي (٦٨٨/٤) وأحمد (٥٣١٧) والحاكم (٥٠٩/٢ - ٥١٠) والحديث ضعيف.

(٢) مجموع الفتاوى (٤٢٤/٦ - ٤٢٥).

(٣) الصفدية (٢٠٨/١) وأسباب النزول من أفراد البخاري.

(٤) الجواب الصحيح (٢٠٤/٣ - ٢٠٥). (٥) ابن جرير (١٠٦/١٦).

(٦) بيان تلبس الجهمية (٥٤٣/١ - ٥٤٤).

يروى عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا﴾ مثيلاً أو شبيهاً (١) هـ.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا﴾) فلا أحد يساميه ولا يستحق أن يسمى بما يختص به من الأسماء، ولا يساويه في معنى شيء من الأسماء، لا في معنى الحي، ولا العليم، ولا القدير ولا غير ذلك من الأسماء، ولا في معنى الذات والموجود ونحو ذلك من الأسماء العامة، ولا يكون إلهاً، ولا رباً، ولا خالقاً (٢) هـ.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَدَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (١١) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (١٢) هـ.

(وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَدَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (١١) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (١٢) فذكر الإنسان بما يعلمه من أنه خلقه ولم يك شيئاً، ليستدل بذلك على قدرته على مثل ذلك، وعلى ما هو أهون منه) (٣) هـ.

وقال في تفسير الآية (٦٦ - ٨٨):

(مذهب الفلاسفة الملاحدة دائر بين التعطيل وبين الشرك والولادة كما يقولونه في الإيجاب الذاتي فإنه أحد أنواع الولادة وهم ينكرون معاد الأبدان وقد قرن بين هذا وهذا في الكتاب والسنة في مثل قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَدَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (١١) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (١٢) إلى قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (١٣) وهذه في سورة مريم المتضمنة خطاب النصراني ومشركي العرب لأن الفلاسفة داخلون فيهم فإن اليونان اختلطوا بالروم فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يقول الله تعالى: «شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، فأما شتمه إياي فقله إني اتخذت ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد وأما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من أعادته» (٤) رواه البخاري عن ابن عباس (٥) هـ.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/٣٦٦).

(٤) البخاري (٤/١٢٩).

(١) مجموع الفتاوى (٣/٤).

(٣) منهاج السنة (١/٣٧٣).

(٥) النبوات (١٨).

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ۗ﴾ (٧٦)

(وأما ورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح، رواه مسلم في صحيحه عن جابر^(١): «بأنه المرور على الصراط» والصراط هو الجسر؛ فلا بد من المرور عليه لكل من يدخل الجنة من كان صغيراً في الدنيا ومن لم يكن) ا.هـ^(٢).

(وكذلك في الحديث الصحيح أنه قال: والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة قالت حفصة: فقلت يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ۗ﴾؟

وقد بين في الحديث الصحيح الذي رواه جابر وغيره أن الورود هو المرور على الصراط، ومعلوم أنه إذا كان قد أخبرهم أن جميع الخلق يعبرون الصراط ويردون النار بهذا الاعتبار. لم يكن قوله لهم: فلان لا يدخل النار منافياً لهذا العبور، ولهذا قال لها: ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؟، فأخبرها أن هذا الورود لا ينافي عدم الدخول الذي أخبرت به، فالذين نجاهم الله بعد الورود - الذي هو العبور - لم يدخلوا النار.

ولفظ «الورود» و«الدخول» قد يكون فيه إجمال فقد يقال لمن دخل سطح الدار: إنه دخلها ووردها، وقد يقال لمن مرَّ على السطح ولم يثبت فيها: إنه لم يدخلها، فإذا قيل: فلان ورد هذا المكان الرديء ثم نجاه الله منه، وقيل فلان: لم يدخله الله إياه، كان كلا الخبرين صدقاً لا منافاة بينهما.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ۗ﴾ (٧٦) فيه بيان نعمة الله على المتقين: أنهم مع الورود والعبور عليها وسقوط غيرهم فيها نجوا منه، والنجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك لما قال: «أنه لا يدخل النار أحد يبايع تحت الشجرة»

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٧٩).

(١) مسلم (٤/١٩٤٢).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/٤٩ - ٥٠).

قالت له حفصة: ألم يقل الله: ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فأجابها بأنه قال: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ۖ﴾ ﴿٧٦﴾ فبين ﷺ أن هؤلاء هم الذين يدخلون جهنم، وهذا الدخول هو الذي نفاه عن أهل الحديدية، وأما الورود: فهو مرور الناس على الصراط كما فسره في الحديث الصحيح: حديث جابر بن عبد الله، وهذا المرور لا يطلق عليه اسم الدخول الذي يجزى به العصاة وينفى عن المتقين ومثل هذا كثير) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك لما قال النبي ﷺ: لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، لم يرد به المرور على الصراط، فإن ذاك لا يسمّى دخولاً، ولكن سمّاه الله وروداً بقوله: ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾).

ولفظ «الورود» يحتمل العبور والدخول، وأيضاً، فالورود والدخول قد يراد: ورود أعلاها.

وقد ثبت في الصحيح أنهم إذا عبروا على الصراط: منهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجويد الخيل.

وفسّر النبي ﷺ الورود بهذا، وهذا عام لجميع الخلق، فلما قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ لم تكن هذه معارضة صحيحة لما أخبر به، فبين لها النبي ﷺ - بعد أن زبرها - أن الله قال: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فتلك النجاة هي المعنى الذي أراده بقوله: لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، لا يقتضي أنهم كانوا معذبين ثم نجوا، لكن يقتضي أنهم كانوا معرضين للعذاب الذي انعقد سببه، وهذا هو الورود) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ولما قال: لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، قالت له حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾) ١. هـ^(٤).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۗ﴾ ﴿٧٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَوْمٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ۗ﴾ ﴿٧٦﴾.

(١) الجواب الصحيح (١/٢٢٨ - ٢٢٩)، والصفدية (١/١٤٠).

(٢) درء تعارض العقل (٥/٢٢٩ - ٢٣٠). (٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/٥١).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٢٨).

(وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيمًا ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِمَّنْ قَرَّبُوا هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ﴿٧٧﴾﴾ والأثاث واللباس والمال، والرثي: المنظر والصورة) ١. هـ^(١).

﴿وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِمَّنْ قَرَّبُوا هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ﴿٧٧﴾﴾.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِمَّنْ قَرَّبُوا هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ﴿٧٧﴾﴾ والأثاث المال من اللباس ونحوه، والرثي المنظر، فأخبر أن الذين أهلكتهم قبلهم كانوا أحسن صوراً، وأحسن أثاثاً، وأموالاً، ليبين أن ذلك لا ينفع عنده ولا يعبأ به، وقال النبي ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى»^(٢) وفي السنن عنه أنه قال: «البذاذة من الإيمان»^(٣) ١. هـ^(٤).

﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

(أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته؛ فإنه يخذل من تلك الجهة؛ وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء؛ ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة؛ ولا استنصر بغير الله إلا خذل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ ١. هـ^(٥).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ أي تزعجهم إزعاجاً) ١. هـ^(٦).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطَرْنَ مِنْهُ نَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَنَحِيرُ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾

(١) منهاج السنة (٣١٦/٥).

(٢) أحمد (٤١١/٥) والحديث صحيح.

(٣) وأبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، والحاكم (٩/١)، والطبراني (٢٦٤/١)، ومشكل الآثار (٤٨٧/١) والحديث صحيح.

(٤) مجموع الفتاوى (١٢٦/٢٢ - ١٢٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٩/١).

(٦) مجموع الفتاوى (٤٤٧/١٠).

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ .

(ولهذا كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: لا ترحمهم فلقد سبوا الله مسببة، ما سبوا إياها أحد من البشر^(١))؛ ولهذا يعظم الله فريتهم على الله في القرآن، أشد من تعظيم افتراء غيرهم كقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَفَّرَ بِالسَّمَوَاتِ يَنْفُكِرْنَ مِنْهُ وَتَسْقُ الْأَرْضُ وَخَرُّوا لِلْجِبَالِ هَدًّا ﴿٩٢﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ وفي الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك شتمني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، فأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحق بالصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأما تكذيبه إياي فقلوه لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته». رواه البخاري عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولداً».

وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أحد أصبر علي أذى سمعه من الله تعالى إنه يشرك به ويجعل له نذ وهو يعافيهم ويرزقهم ويدف عنهم» (١. هـ^(٢)).

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ .

(وقوله: ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ أي ذليلاً خاضعاً، ومعلوم أنهم لا يأتون يوم القيامة إلا كذلك، وإنما الاستكبار عن عبادة الله كان في الدنيا) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادَ مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف: ١٠٢]. قد يقال في هذا: أن المراد به الملائكة، والأنبياء، إذ

(١) عزاه ابن القيم في إغاثة اللهفان (٣٩٨/٢) لعمر بن الخطاب والله أعلم، ولفظه: (أذلوهم وتظلموهم).

(٢) الجواب الصحيح (٤/٤٥٧ - ٤٥٩). (٣) مجموع الفتاوى (١/٤٤).

كان قد نهى عن اتخاذهم أولياء، فغيرهم بطريق الأولى، فقد قال: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) هـ. (١).

﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (٩٤).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] كما قال في الآية الأخرى:

﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (٩٤) فإن إحاطة العلم والعد بهم فيه بيان أنه لا يكون منهم إلا ما يعلمه، لا ينفردون عنه بشيء، كما ينفرد الولد عن والده، والشريك عن شريكه) هـ. (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦).

(و«الود» اللطف والمحبة؛ فهو يود عباده المؤمنين، ويجعل لهم الود في القلوب،

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦) قال ابن عباس وغيره: يحبهم ويحببهم إلى عباده) هـ. (٣).

وقال رحمه الله: (والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود أي أنه يود عباده الصالحين

بمعنى أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ويكون معناه أن يوددهم إلى خلقه كقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قلت قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ فسروها بأنه يحببهم

ويحببهم إلى عباده كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد نادى يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء أن الله يحب فلاناً

فأحبه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض» (٤) وقال في البغض مثل ذلك

وقال عبد بن حميد أنبأ عبيد الله بن موسى عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال يحببهم ورواه ابن أبي حاتم

أيضاً وقال عبد أخبرني. شيا به عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: يحببهم إلى المؤمنين. أخبرنا عبد الرزاق عن الثوري عن

مسلم عن مجاهد عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال محبة وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ هـ. (٥).

وقال رحمه الله: (إن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عام في جميع

المؤمنين، فلا يجوز تخصيصها بعلي، بل هي متناولة لعلي وغيره، والدليل عليه أن

(١) مجموع الفتاوى (٤٤/١).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣٧٣/٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٦٩).

(٤) مر تخريجه.

(٥) النبوات (٧١ - ٧٢) وجميع الأقوال التي فيه مر تخريجها.

الحسن والحسين وغيرهما من المؤمنين الذين تعظمهم الشيعة داخلون في الآية، فعلم بذلك الإجماع على عدم اختصاصها بعلي (١) هـ.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ يَلْسَانُكَ لِتَبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (١٧).

(وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ يَلْسَانُكَ لِتَبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (١٧) والد جمع الألد، وهو الأعوج في المناظرة الذي يروغ عن الحق، كما قال النبي ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» (٢) هـ. ١ هـ. (٣).

فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (سورة مريم، مضمونها: تحقيق عبادة الله وحده، وأن خواص الخلق هم عباده، فكل كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة، وتضمنت الرد على الغالين الذين زادوا في النسبة إلى الله حتى نسبوا إليه عيسى بطريق الولادة، والرد على المفرطين في تحقيق العبادة وما فيها من الكرامة وجحدوا نعم الله التي أنعم بها على عباده المصطفين.

افتتحها بقوله: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ (٢١) [مريم] وندائه ربه نداء خفياً، وموهبته له يحيى، ثم قصة مريم وابنها.

وقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣] إلخ، بين فيها الرد على الغلاة في المسيح، وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به عليه، ثم أمر نبيه بذكر إبراهيم وما دعا إليه من عبادة الله وحده، ونهيه إياه عن عبادة الشيطان. وموهبته له إسحاق ويعقوب وأنه جعل له لسان صدق علياً، وهو الثناء الحسن، وأخبر عن يحيى وعيسى وإبراهيم ببر الوالدين مع التوحيد وذكر موسى وموهبته له أخاه هارون نبياً.

كما وهب يحيى لزكريا، وعيسى لمريم، وإسحاق لإبراهيم فهذه السورة سورة المواهب، وهي ما وهبه الله لأنبيائه من الذرية الطيبة، والعمل الصالح، والعلم النافع ثم ذكر ذرية آدم لأجل إدريس ﴿وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨] وهو إبراهيم ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل، إلى آخر القصة، ثم قال: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ﴾ الآية [مريم: ٥٩].

(٢) البخاري (٣/١٧١)، ومسلم (٢٦٦٨).

(١) منهاج السنة (٧/١٣٧).

(٣) الجواب الصحيح (٢/٧٠).

فهذه حال المفرطين في عبادة الله، ثم استثنى التائبين وبين أن الجنة لمن تاب، وأن جنات عدن وعدّها الرحمن عباده بالغيب، وهو أهل تحقيق العبادة، ثم قال: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مریم: ٦٣] ثم قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مریم: ٦٥]. ثم ذكر حال منكري المعاد، وحال من جعل له الأولاد، وقرن بينهما فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

«كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك»^(١) الحديث، ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِنِّي لَمَكْرُومٌ كَانَتْ كَيْفًا﴾ [مریم: ٦٦].

ثم ذكر إقسامه على حشرهم والشیاطين، وإحضارهم حول جهنم جثياً. وفيها دلالة على أن المخبر عن خبر يحصل في المستقبل لا يكون إلا بطريقتين: إما اطلاعه على الغيب، وهو العلم بما سيكون وإما أن يكون قد اتخذ عند الرحمن عهداً، والله موف بعهدة فالأول علم بالخبر، والثاني علم بالأمر.

الأول: علم بالكلمات الكونية، والثاني: علم بالكلمات الدينية وهذا الذي أقسم أنه يأتي يوم المعاد ما ذكر كاذب في قسمه، فإنه ليس له اطلاع على الغيب، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً.

وهذا كما قيل في إجابة الدعاء، إنه تارة يكون لصحة الاعتقاد، وهو مطابقة الخبر، وتارة لكمال الطاعة وهو موافقة الأمر كقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦]، فذكر حال من تمنى على الله الباطل بلا علم بالواقع، ولا اتخاذ عهد بالمشروع.

ثم ذكر حال الذين قالوا اتخذ الرحمن ولداً، فنفى الولادة عن نفسه، ورد على من أثبتها، وأثبت المودة رداً على من أنكرها فقال: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مریم: ٩٦]. أي يحبهم، ويحبهم إلى عباده.

وقد وافق ذلك ما في الصحيحين: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض»^(٢).

وقال في البغض عكس ذلك.

وفي قول إبراهيم ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَفِيَّتَا﴾ [مريم: ٤٧] وقوله في موسى: ﴿وَنَدَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَقَّيْتَهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

وما ذكره للمؤمنين من المودة إثبات لما ينكره الجاحدون من محبة الله وتكليمه، كما في الأول نفي لما يشبهه المفترون من اتخاذ الولد.

سئل رضي الله عنه: عن قوله ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] هل ذلك فيمن أضاع وقتها فصلاها في غير وقتها؟ أم فيمن أضاعها فلم يصلها؟.

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥].

هل هو عن فعل الصلاة أو السهو فيها كما جرت العادة من صلاة الغفلة الذين لا يعقلون من صلاتهم شيئاً أفتونا مأجورين.

فأجاب رضي الله عنه:

الحمد لله رب العالمين: بل المراد بهاتين الآيتين من أضاع الواجب في الصلاة لا مجرد تركها، هكذا فسرها الصحابة والتابعون، وهو ظاهر الكلام فإنه قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها، فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها، وقد قال طائفة من السلف: بل هو السهو عما يجب فيها مثل ترك الطمأنينة، وكلا المعنيين حق، والآية تتناول هذا وهذا، كما في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(١).

فبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن صلاة المنافق تشتمل على التأخير عن الوقت الذي يؤمر بفعلها فيه، وعلى النقر الذي لا يذكر الله فيه إلا قليلاً، وهكذا فسروا قوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾.

بأن إضاعتها تأخيرها عن وقتها وإضاعة حقوقها، وجاء في الحديث: «أن العبد إذا قام إلى الصلاة بطهورها وقراءتها وسجودها - أو كما قال - سعدت ولها برهان كبرهان الشمس تقول له: حفظك الله كما حفظتني وإذا لم يتم طهورها وقراءتها

وسجودها - أو كما قال - فإنها تلف كما يلف الثوب وتقول له: ضيعك الله كما ضيعتني»^(١).

قال سلمان الفارسي: الصلاة مكيال، مَنْ وَفَى وَفَى لَهُ، وَمَنْ طَفَّفَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَالَ فِي الْمَطْفِيفِينَ^(٢).

وفي سنن أبي داود عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها إلا خمسها، إلا سدسها، إلا سبعها، إلا ثمنها، إلا تسعها، إلا عشرها»^(٣).

وقد تنازع العلماء فيمن غلب عليه الوسواس في صلاته، هل عليه الإعادة على قولين، لكن الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا إعادة عليه واحتجوا بما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، فإذا ثوب بالصلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، فيقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لن^(٤) يدري كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدة قبل أن يسلم»^(٥).

فقد عم بهذا الكلام ولم يأمر أحداً بالإعادة و«الثاني» عليه الإعادة وهو قول طائفة من العلماء: من الفقهاء والصوفية من أصحاب أحمد وغيره كأبي عبد الله بن حامد وغيره لما تقدم من قوله (ولم يكتب له منها إلا عشرها).

والتحقيق أنه لا أجر له إلا بقدر الحضور لكن ارتفعت عنه العقوبة التي يستحقها تارك الصلاة، وهذا معنى قولهم: تبرأ ذمته بها، أي لا يعاقب على الترك، لكن الثواب على قدر الحضور كما قال ابن عباس: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)، فلهذا شرعت السنن الرواتب جبراً لما يحصل من النقص في الفرائض والله أعلم^(٦).

(١) مرّ تخريجه.

(٢) عزاه صاحب الدر (٣٢٤/٦) لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة.

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) كذا في الأصل، والصواب: (إن) التي بمعنى (ما) النافية.

(٥) البخاري (١٢٣١)، ومسلم (٣٨٩).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٣٠/١٥ - ٢٣٦).